الفصل السادس

بَشِّر صَاحبكَ بغلامٍ

إذا اجتمعت هذه الفطرة السـوية القويـة، وهذا الإيمان الوثيق بالله وهذه الأمانة الكاملة فى تحمل مسئوليات الوجود والحياة، مع ذكاء ثاقب رَحْب، فماذا يبقى من المكرُمَات والعظائم، حتى يكون الكمال الإنسانى قد تجسّد بشرًا، ونهض على ساقَيْن؟؟!!

هـذا العـدل، وهذا الورع، وهـذا التفانى فـى الواجب، وهذه الاستقامة على صراط الحق، والفِطنة التى لا يخدعها خِبّ..

تلك الخصائص المثلى لم يأخذ «عمر» منها حظًّا مجرد حظ، بل بلغ نهاياتها، وتفوق على مستوياتها القياسية جميعًا..

أجل، إن الكمال الإنسـانى حيـن أراد أن يحقق وجوده المادى المحسوس، تجسد فى نماذج نادرة وباهرة من البَشَر. وإن أحد هذه النماذج العليا، لهو «عمر بن الخطاب»...

رجـل كما رأينا، عظيم. تتمنى العظَمة نفسُـها أن تكون إحدى صفاته وسِماته!!.

على أن الصورة التى نتملأها له عَبْر هذه الصفحات لم تَستكمل بعد ملامحها، فلا يزال هناك مَلْمح باهر مشرق أخاذ..

صحيح أنه ماثل فى كل الملامح السالفة، ولكنه بالنسبة إلينا، نحن الذين نقسم الموضوع لنحسن فهمه ولنطيق استشراف هذه العظمة السامقة رويدًا. لا يزال أمامنا هذا الملمح المطِلُّ، يجذبنا ويدعونا..

فالرجل الذى ورَّثه الله ملك كسرى وقيصر، والرجل الذى كان أصحابه يرقبون ابتساماته ترقّب الأهِلَّة من طول كَظمهِ شَفتيه خوفًا من الله ووقارًا له، وفَرقًا من مسئولياته أن يَزِلّ فيها، أو يَنُوء بها..

الرجل الذى خُلق ليقود عالمًا، والذى رُزق طبيعة تقتلها الراحة، ويُغريها العمل بالعمل..

هذا الرجل الشاهق، الهادر، الجياش، كيف كان نهج حياته تحت وطأة مسئولياته، وإخباته، وجيشان فطرته وطاقاته؟

هل عقّدته خصائصه هذه، أم زادته وضوحًا؟

هل اضطرته إلى الانطواء والتزمُّت، أم مكّنته من المجاوزة ومنَحته التفتّح؟؟

هناك قدر من التحفظ، والصَّلَف، تحمى به الزعامة المنتصرة نفسها، وتصون بها هيبتها، فهل أخذ «عمر» حظه المألوف من هذا، أم كان عنده بديل آخر دعَم زعامته، وإمامته، وهيبته؟؟

أجل، كان هناك بديل يليق «بعمر»، ولا يقدر عليه إلا واحد من طراز «عمر»..

كان هناك البساطة!!

ولكننا نظلم البساطة عند «عمر»، إذا قلنا إنها كانت بديلا لشيء آخر.

فليس فى أخلاق «عمر» ولا فى خصائصه ما هو بديل.. إنما هى جميعًا ذواتُ أصالةٍ مطلقة. و «عمر» نفسه، هو وطنها وجوهرها...

أجل ، إن الشجاعة، وإن العدل، وإن الورع، والاستقامة، كلها أخلاق إنسانية يحمل أمانتها بنو الإنسان، وتوجد بنسب متفاوتة مع الناس جميعًا – ولكن شجاعة «عمر». وعدله، وورعه، واستقامته، شيء نابع من «عمر»، ومختص به.. وما كان سيوجد قط، لو لم يوجد «عمر»!!

لقد أدت خصائص «عمر» بمعونته دورها الفريد الفذَّ الذى جعلها متميزة كأنها من جوهر آخر فريد. هو «عمر» نفسه..

وهذه عظمة الرجل.. إنه لم يأخذ من الفضيلة سِيماها وطابعَها، بل هو الذى منح الفضيلة طابعه وسِيماه!!..

من أجل هذا ازدهرت الفضائل فى نفسه وسلوكه، ازدهار شخصيته..

واكتملت لديه الفضائل جميعًا واتحدت فى كل واحد، هو «عمر»..

وإذا كنا نُجزّئها ونقول، عدل «عمر»، ورع «عمر»، أمانة «عمر»، فطنة «عمر»، قوة «عمر».. فإنما نفعل هذا لنعلِّم أنفسنا..

أجل، إننا نُقسِّم طريقنا لنقدر على استيعابه، ونقسم المادة التى بين أيدينا لنتمكن من تحصيلها..

أما فضائل أمير المؤمنين، فلا تتجزأ فى مجال العمل، كما لا تتجزأ فى ميزان التقييم.. ذلك لأنها ليست أوسمة منوطة بصاحبها.. بل هى صاحبها نفسه، وهى الرجل الذى تنبع منه وتنتمى إليه.. هى، «عمر»!!

* * *

ورجل هذا شأنه، رجل مترع بالعظمة وبالتفوق إلى هذا الحد لا يمكن أن يستهويه التمايز، ولا يمكن أن يجد راحة نفسه وغبطتها إلا فى البساطة المتناهية، وفى الحياة «بين» الناس لا «فوق» الناس..

فهو يجلس حيث انتهى به المجلس. ليس له مكان صدارة يختص به نفسه. وهو ينام حيث يدركه النوم، فوق الحصير فى داره، أو فوق الرمال تحت ظل النخيل!!.. وهو يأكل ما يجد، وما يُقيم الأوَد لا غير.. شريحة من اللحم المقدد، أو شريحة من الخبز مبللة بالزيت، مُتبّلَة بالملح!!.

وهو سعيد، حين يسمع امرأة، أو غلامًا. يناديه: يا عمر..

وهو فى سعادة لو علمها ملوك الأرض لَحسدوه عليها، حين يرى عجوزًا تحمل مِكْتلا يؤودها حمله. فيتقدم منها ويحمله عنها بعض الطريق، ويضحك مِلء نفسه، وهو يسمعها: تقول له شاكرة:

أثابك الله الخير يا بنى.. إنك لأَحَقُّ بالخلافة من عمر!!

* * *

ذات ليلة خرج فى جولة من جولاته التى كان يخرج فيها وحيدًا، والناس نيام ليطمئن على قومه ويَبْلُو أحوالهم، وينفُضُ الليل عن حاجاتهم!

وعند مَشارف المدينة رأى كوخًا، ينبعث منه أنين امرأة، فاقترب يسعى، ورأى رجلا يجلس بباب الكوخ، وعلم منه أنه زوج السيدة التى تئن، وعلم أنها تعانى كَرْب المخاض، وليس معها أحد يُعينها؛ لأن الرجل وزوجته من البادية وقد حطَّا رِحالهما هنا وحيدين، غريبين..

ورجع «عمر» إلى بيته مسرعًا، وقال لزوجته «أم كلثوم» بنت الإمام على..

- هل لك فى مَثُوبة ساقها الله إليك؟؟

- قالت: خيرًا؟

قال: امرأة غريبة تَمخَض، وليس معها أحد.

قالت: نَعم، إن شئت..

وقـام فأعد من الـزاد والماعون ما تحتاج إليـه الوالدة من دقيق وسمن، ومِزَق ثياب يُلَفُّ فيها الوليد..

وحمـل أمير المؤمنيـن القِدْرَ على كتـف، والدقيق على كتف، وقال لزوجته: اتبعينى..

ويأتيان الكوخ، وتدخله «أم كلثوم» زوج أمير المؤمنين، لتساعد المرأة فى مُخاضها..

أما أمير المؤمنين، فيجلس خارج الكوخ وينصب الأثافِيَّ ويضع فوقهـا القدر، ويوقد تحتها النار. ويُنضـج للوالدة طعامًا، والزوج يَرمُقه شـاكرًا... ولعلَّه كان يحدث نفسه هو الآخر بأن هذا العربى الطيب أولى بالخلافة من «عمر»!!

وفجـأة صَدَح فى الكوخ صراخ الوليد.. لقد وضعته أمه بسـلام، وإذا صوت «أم كلثوم» ينطلق من داخل الكوخ عاليًا:

- يا أمير المؤمنين، بَشِّر صاحبك بغلام!!

ويفهق الأعرابى من الدهش، ويسـتأخر بعيدًا على اسـتحياء، ويحـاول أن ينطـق الكلمتيـن - أمير المؤمنين - ولكن شـفتيه لا تقويان على الحركة من فرط ما أفاءته المفاجأة من سعادة، وطرافة، وذهول!!

ويلحظ «عمر» كل هذا، فيشير للرجل: أن ابق مكانك، لا تُرعْ.. ويحمل أمير المؤمنين القِدر. ويقترب من باب الكوخ مناديًا زوجته..

– خذى القدر يا «أم كلثوم»، وأطعمى الأم وأَشبعيها..

وتُطعمها «أم كلثوم» حتى تشبع، وترد القدر إلى «عمر» بما بقى من طعام، فيضعها «عمر» بين يدى الأعرابى، ويقول له:

– كل واشبع، فإنك قد سهرت طويلا، وعانيت كثيرًا... ثم ينصرف هو وزوجته، بعد أن يقول للرجل:

–«إذا كان صباح الغد فائتنى بالمدينة، لآمر لك من بيت المال بما يصلحك، ولِنفرضَ للوليد حقه»!!

رضى الله عن «عمر»، وإنه لَحقٌّ، ما قاله الرسول عنه: «لم أرَ عبقريًّا يَفرِى فَرِيَّه»، فهو بألمعيته وبصيرته. قد عرف حقيقة السعادة، وحقيقة العظمة فى دنيانا هذه، فأخذ منهما بالمكيال الأوفى.

ألا وَربِّ «عمر». إن مشهدًا واحدًا كهذا الذى رأيناه لخير مما طلَعت عليه الشمس وغرَبت – من عُروش وتيجان، وزُخرف وصَلف.!!

أى تواضع وأية بساطة، وأى حنان ومودة تنساب من نفس هذا الإنسان الذى رفع الله به من قَدْر الحياة؟!

أين مظاهر السلطان، حتى المشروع والضرورى منها؟!

لكن «عمر» لم يكن رجلَ سلطان، لأنه فوق السلطان. وهو لا يستعير عظمته من شيء خارج نفسه. إنما يَهبُ العظمة لكل ما يقترب منه ويتصل به.

وهو لا يتكلف البساطة، بل يتنفسها.. ويُوَطِّئ أكنافه فى غبطة للكبير والصغير!!

يمر يومًا فى المدينة بغلمان يلتقطون البلح من أفنية النخل، فلا يكاد الغلمان يبصرونه حتى يتفرقوا، ويذهبوا بعيدًا، غير غلام واحد ظل فى مكانه لا يَريم..

ويقترب منه «عمر»، فَيُباكِرُه الغلام القول:

- «يا أمير المؤمنين، إن هذا البلح مما ألقته الريح»!!

فيقول له عمر: «أرِنى أنظُرْ إليه. فإن ما تلقيه الريح لا يخفَى علىَّ» وينظر البلح ويفحصه ثم يقول للغلام: صدقت..

وتتهلل أسارير الطفل، ويقول لأمير المؤمنين فى براءَة:

- «أترى هؤلاء الغلمان الذين هناك؟؟ إنهم ينتظرون أن أذهب وحدى فيغيروا علىَّ ويأخذوا ما معى»..

ويضحك «عمر»، ويُرَبِّتُ على كتفه، ويقول للغلام: امضى معى، وسأبلغك مَأمَنك.. ويأخذ بيده ويسير إلى جانبه حتى يُشارف داره!!

* * *

أكانت بساطته تنبع من مسئوليته، أم نبعت كل خصائصه المتفوقة من عظمة نفسه؟؟

ألاَ مَن شاء أن يرى ما يَسُرُّ الأعين، ويجعل الأفئدة فى عيد..

ألا من شاء أن يرى العظمة الإنسانية فى أوج صدقها ونُهاها..

فليبصر ذلك الإنسان الفارع الطول، الأصلع الرأس. المنفرج القدمين، اللابس بردة بها إحدى وعشرون رقعة، والحامل فى يُسراه دواة، وفى يمناه قِرطاسًا وقلمًا.. يقرع أبواب الدور، ويطلب إلى نساء المؤمنين اللواتى غاب أزواجهن فى الثغور وفى ميادين الجهاد أن يجلسن وراء الأبواب: ويُملين عليه رسائلهن إلى الأزواج، فإن البريد على وَشْكِ أن يرحل ويسافر!!

أو فليبصر ذلك الإنسانَ نفسه، أميرَ المؤمنين «عمر»، والظافر بالدنيا العريضة - دنيا الروم وفارس، يقرع الأبواب نفسها، وينادى الزوجات اللائى غاب أزواجهن:

- «اذكرن لى حاجاتكن، ومن كانت لها فى السوق حاجة، فلتذكُرها لى، أو لترسل معى خادمها إن كان لها خادم، فإنى أخاف أن تُخدعن فى البيع والشراء»!!

ثم يمضى إلى السوق ووراءه سِرْب طويل من الخدم، وهناك يشترى بنفسه، ويضع الحاجات فى السِّلال بيده!!

أصحيح أن هذا الرجل عاش على ظهر الأرض يومًا، وكان أميرًا للمؤمنين، وكان يحيا بهذه البساطة، ويَعدل هذا العدل، ويُخْبِتُ ذلك الإخبات؟؟!!

أصحيح أن رجلا، اسمه «عمر»، كان للمسلمين خليفة وإمامًا، وفتح الله له فتحًا مبينًا، هابته مُلوك الأرض، وتدحرج عند قدميه طُغاتها وجَرت بين يديه كالأنهار، الأموال والكنوز - يزوره وفد العراق يومًا ومعه الأحنف بن قيس، فيُفاجأون به والحر شديد، والصيف قائظ، منهمكًا في تطبيب بعير من إبل الصِّدقة يطليه بالقَطران - ثم لا يكاد يرى ضيوفه، وفيهم الأحنف حتى يناديه:

- «ضع ثيابك يا أحنف، وهَلُمَّ فأعِنْ أمير المؤمنين على هذا البعير فإنه من إبل الصدقة، وفيه حق للأمَة، والمسكين، واليتيم»..

فيقول له رجل من الوفد، وقد أذهلته المفاجأة:

- «يغفر الله لك يا أمير المؤمنين، إن عبدًا من عبيد الصدقة يكفيك هذا»..

فيجيبه عمر: «وأيُّ عبدٍ أعبدُ مني ومن الأحنف؟..» ثم يستأنف تطبيبه للبعير!!

أصحيح هذا؟؟

من حسن حظ البشرية أنه صحيح، وأن لها من «عمر» مَعِينًا لا يَنضُبُ من الغبطة والعظمة والأمل..

من حسن حظ البشرية، أن «عمر» واحد منها، لتعلم أنها تنطوى على إمكانات الكمال الذى تصبو إليه وتريده، وأنه ليس عليها

إلا أن تجلُـو مواهبها، وتصقُل مَزاياهـا ومَرَاياها، فإذا هى تخرج الخبء، وتعطى الثمر، وتنجب العظمة والكمال!!.

* * *

إن بسـاطة عمر تكشـف الحماقة الكبرى التى يخوض فيها كل مـن يأخذه الزهو والصَّلف بمنصـب يناله، أو نصر يبلغه، أو ثروة يجمعهـا. فما الصلف والتكلف إلا عـبء ثقيل يحمله المخدوعون به، ويصطلون بعذابه وهم لا يشعرون..

أما البساطة الصادقة التى عاشها «عمر»، فتلك هى السعادة حقًّا، السعادة التى يتمثل فيها رجوع النفس إلى جوهرها، وتفوقها على كل خلابة وغُرور...

سبحانه، ربُّ «عمر»!!.

لقد ألهمه رشده، ووقاه شرَّ نفسه. ومَنَحه من استقامة الشخصية وجلالها ما جعله نسـيج وحده، لا فـى بلده وحده، ولا فى عصره وحده، بل ملء كل مكان، وعَبر الزمان، جميع الزمان!!

حيثمـا نلقـاه، نلقى بطولة روحـه، نلقى بسـاطته وإخلاصه وصدقـه. حتى ليتركنا فى حيرة، كيف توفر لهذا الرجل، كل هذا القدر من الدَّعَة، والأمانة، والبساطة، وهو الذى زادت أعداد الجند فى جيوشه على مئات الألوف، وأصبحت الأموال تتكدَّس بين يديه فـى أفناء المدينة أكوامًا وتِلالا. وأخـذت الوفود من أرجاء الأرض

القريبة والبعيدة، تسعى إليه طالبةً الأَمْن، وأحاطت به قلوب الشعوب التى حررها من ظلم الروم، وغطرسة الفرس.. وأحاطت به فى هُيام وحب وفتون يسلُب الحليمَ لُبَّه!!.

كل قوى الإغراء بالزهو، والحض على الاستعلاء. ثم لا نجد أَثارةً - أدنى أثارة - من زهو أو استعلاء. بل على العكس نجد قِممًا تَزْحَمُ الأفق.. قمة الزهد، وقمة العدل، وقمة الورع، وقمة البساطة والتواضع.. شَوامخ يعلى الرجل بناءها بفضائل نفسه، وبطولة روحه، واستقامة نهجه!!

انظروا...

ها هو ذا يقترب من مشارف الشام، وقد خرج أهلها لاستقباله، فيلقاهم رجل قد امتطى جملا يجلس فوق وطاء من صوف خشن، وقد دَلَّى رجلاه من شعبتى رَحله، فلا وِجاف، ولا رِكاب، يلبس قميصًا من قطن، كثير الثقوب، كثير الرقَاع!!

ويقبل الناس على الرجل يسألونه: أين أمير المؤمنين؟؟

- ألم تلق موكبه فى الطريق؟؟

فيجيبهم الرجل باسمًا «أمير المؤمنين أمامكم» فَيُغِذّون السير إلى أمام.. حتى يأتيهم الخبر من ورائهم بعد حين: أن أمير المؤمنين قد وصل «أيلة» ونزل بها، فيعودون مهرولين..

ويدخلون على أمير المؤمنين حيث كان يجلس مع الناس وتكاد تصعقهم المفاجأة، فما أمير المؤمنين إلا الرجل الذى لقيهم يمتطى جملا والذى سألوه عن أمير المؤمنين، فقال إنه أمامكم!!

ويؤتى له ببرْذَون مُطَهّم عليه سرج جميل، ورَحْل أنيق، فيرفض ركوبه ويقول: نَحُّوا عنى هذا الشيطان!!

فـإذا قيل له: إن هذه بلاد لا تصلـح بها الإبل، يركب البرذَوْن ولكن بعد أن يجرده من كل حِلْية وزُخرف. وبعد أن يُلقى عن ظهره بالسـرج الأنيق، والرحل المزركش، ويضع مكانهما، الكسـاء من الصوف الذى كان يتخذه وطاء له إذا ركب، ووسـادة ينام عليها إذا نزل!!

وفى رحلته الأولى إلى بلاد الشام يلقاه على أبواب مدينة القدس قواد جيشـه وأمراؤه، ممتطين صهوات الخيل، وقد تمنطقوا بحلل من الديباج..

فلا يكاد «عمر» يرى المشهد، حتى ينزل من فوق دابته سريعًا، ويده علـى الأرض تأخذ من طوبها وحَصاها، ويرى الأمراء والقواد ثم يقبل عليهم قائلا:

«سـرعان ما فُتنتم؟ أفى هذا الزى تستقبلون عمر...؟ سرعان ما ندَّت بكم البِطنة والترف، وأنتم الذين لم تشبعوا إلا من عَامَين»!!

هـذا رجل لم تكن البسـاطة، والتواضع، هوايـة له، بل كانت دينا، وفطرة، وأمانة..

إنه يلتقى ذات ليلة بسـيدة تسـير وحدها فى المدينة. حاملة قربـة كبيرة فيقترب منها ويسـألها عن أمرهـا، فيعلم أنها ذات عيـال، وليس لها خادم، وأنها تنتظر حين يرخى الليل أسـتاره،

فتخرج لتملأ قربتها ماء. فيأخذ منها القربة ويحملها عنها، وهى لا تعرف من هو..؟ حتى إذا بلغ دارها، قال وهو يناولها قربة الماء:

- «إذا أصبح صباح غد؛ فاقصدى عمر، يرتب لك خادمًا، قالت: إن عمر كثير شغله، وأين أجده»؟

قال: اغْدِى عليه، وستجدينه إن شاء الله تعالى..

وتعمل المرأة بمشورة الرجل الطيب، لكنها لا تكاد تذهب إلى عمر، وتقف بين يديه حتى تصيح مبهورة: أنت هو إذن؟!

ويضحك أمير المؤمنين. ثم يأمر لها بخادم ونفقة..

* * *

لا ريب أن أمير المؤمنين لو خير بين هذه البساطة الصادقة، وكل ما فى الدنيا من زينة وزخرف، لما آثر على نعمة التواضع والبساطة شيئًا..

وإن الرجل الذى عاش حياته متفوقًا، وكانت أيامه فوق الأرض موكبًا مستمرًا من الانتصارات والسعادة - منذ كان فتى يصارع الفتيان فى سوق عُكاظ، فيظفر بهم وينتصر عليهم..

إلى أن أسلم. فكان إسلامه فتحًا.. ثم هاجر، فكانت هجرته نصرًا.. إلى أن صار أميرًا للمؤمنين تتهاوى تحت ضرباته أركان العالم القديم كله!!

هذا الرجل، صاحب هذه الحيـاة الحافلة دومًا، الظافرة أبدًا.. كان أروع انتصاراتـه وأبهاهـا وأبقاها، هذا الـورع الذكى الجليل الـذى أعطى دنيا الناس كافة، ودنيا الحكام خاصة، قدوة لا تَبلَى، ولا هى يومًا بنا صِلَة!!

قدوة تتمثل فى عاهل بركت الدنيا على عتبة داره مُثقلَة بالمغانم والطيبات، فسرَّحها سراحًا جميلا، وساقها إلى الناس. ينثر فيهم طيباتها ويَدرأ عنهم مُضِلاَّتِها.. حتى إذا نفض يديه من علائق هذا المتاع، استأنف سيره ومَسراه، مُهرولا فى فترة الظهيرة وراء بعير من أموال الأمة يخشى عليه الضياع.. أو مُنحنيًا فوق قِدر ينضج فيه طعمة طيبة لامرأة غريبة أدركها كَرب المخاض.. أو مسـتقبلا فوق الرمال وتحت ظل النخيل، وفدًا من وفود الدنيا التى تقصد المدينة تباعًا، باحثة لأممها ودولها عن مكان فى العالم الجديد الذى ينسفه «عمر» ويبنيه..أو صاعدًا المنبر يخطب المسلمين ويذكرهم بأيام الله فى بردة تزدان بإحدى وعشرين رقعة أو تزيد!!.

* * *

وبعد:

أبقى شىء يقال؟..

أسـتغفر الله.. بل هل قلنا شيئًا من الكثير، الكثير، الذى يمكن أن يقال؟؟

ألاَ حَسْبنا تلك اللحظات اليانعة الممتلئة التى عشناها معه...

ولْنقنع قبل أن تتقطع منا الأنفاس، بتلك الخطى المحبورة التى تابَعْنا بها – قليلا من الوقت – رجُلا يسابق الزمان!!.

وإذا أردنا أن نُعبِّر عن انبهارنا البالغ أشُدَّه، فلنوفر على أنفسنا عناء مالاَ يُطمع فيه ولا يُقدَر عليه، ولْتَسـْعنا فى هذا الموطن كلمة عبد الله بن مسعود:

– لله دَرُّ ابن الخطاب.. أىُّ امرِئ كان؟؟!!..

□□□

المراجع التاريخية

- الكامل: للعلامة ابن الأثير.
- الطبقات الكبرى: ابن سعد.
- أخبار عمر: للأستاذين [على الطنطاوى/ ناجى الطنطاوى].